الأنوثة والبحث عن هوية ثقافية

مارينا ياغيلو.

ترجمة: **أحمد الفوحي.**

تقديم:

ليست اللغة ذلك الكل المتجانس. فداخل المجموعة اللسانية الواحدة نجد فروقا عديدة، تهم الانتماء الجهوي أو الحرفي أو الطبقي وحتى الجنسي. واللغة، أيضا، نسق ترميزي يسهم في إقامة العلاقات بين أفراد المجتمع؛ من سائد ومسود. إن les Mots et les femmes لصاحبته الباحثة اللسانية مارينا ياغيلو Marina Yaguello الصادر في طبعته الجديدة عن دار النشر مكتبة بايو الصغيرة، **باريس سنة 2002، والذي نترجم منه الفصل الرابع من القسم الأول الذي خصصته الكاتبة لموضوع لغة الرجال ولغة النساء. وهو فصل تنتصر فيه الكاتبة إلى وجوب النظر إلى الفروق اللغوية بين الذكر والأنثى على أنها مسألة ثقافية لا دخل فيها للطبيعة**

فكيف تعبر النساء؟ وكيف يتحادثن فيما بينهن؟ وما علاقة اللغة بالحركة النسوانية؟ وهل الفروق الغوية بين الذكر والأنثى مردها إلى الطبيعة أم إلى الثقافة؟

هذه بعض القضايا التي يثيرها كتاب "الكلمات والنساء.

المترجم.

النص المترجم:

إذا كانت السلطة للرجال، أفلا تكون القوة للنساء ؟

هل من الواجب على النساء تبني لغة الفحولة ما دامت هذه الأخيرة النموذج السائد، الذي يحظى بمكانة مرموقة في المجتمع؟ ففي كل علاقات الهيمنة، ينتهي الحال باللغة المهيمَن عليها إلى الذوبان في اللغة المهيمِنة. وقد يبدو تحرير اللغة والتخلي عن الطابوهات (المحظورات) بموازاة مع التحلل من آداب السلوك واللباس عنصرا ضروريا لتحرير المرأة. وهو ما يتم، فعلا، في زمننا الحاضر. ف**بونوات غرولت**تؤكد في هذا الصدد مدى نجاعة التخلي عن محظورات اللغة؛ وتحلم بأسبوعية شارلوت

موجهة للنساء تمكنهن من التحرر من العقد باعتماد البذاءة المسلية والجارفة. وأما النموذج المؤنث الذي بينه **ياسبيرسين** فيبدو لنا أمرا مثيرا للسخرية وبعيدا عن الواقع. ويمكننا توقع زوال الفروق اللغوية بين الرجل والمرأة كلما توحدت أنماط عيشهما، وتلقت النساء التربية التي يتلقاها الرجال وحصلت على نفس الوظائف[التي كانت حكرا على الرجال]؛ ما دام التمييز بينهما ظاهرة اجتماعية. وهو الأمر الذي ينطبق على التمييز بين لغة العامة ولغة الطبقة الراقية، بفضل لغة مشتركة وسطى، تعمل وسائل الإعلام على انتشارها. فسيكون هناك ما يشبه تسوية لسانية تمحو، تدريجا، الفوارق بسبب الوضع الاجتماعي أو السن أو الجنس. وفي هذا الاتجاه تنحو مجهودات المؤسسات اللسانية وهيآت التربية. كما أن تراخي الخلوصية[اللسانية] يسهم في هذا الأمر.

غير أن التقيد بمعايير المذكر يعني، ضمنا، الاعتراف بتفوقها. ويبدو أن تجاوز النساء "المتحررات" للحواجز الجنسية، وتبني لغة الفحولة، واللغة "القوية" يسهم في التحرر؛ ولكن ألا يؤدي هذا إلى محاصرة النساء داخل نسق ما يزال قائما على التمييز الجنسي(يُنظر لغة الاحتقار) (1) ومناقضة نضالهن؟ كما أننا نعاصر،اليوم، حركة واسعة تتبنى خصوصية نسائية تبنيا كاملا في مجال الثقافة عموما ومجال اللغة بصفة خاصة. ويشهد زمننا هذا بحثا للنساء عن هويتهن.

بإمكان النساء التعبير والكتابة، بشكل آخر، هذا ما تنادي به مجموعة من النساء ك**ماري كاردينال وهيلين سيكسوس** و**آني لوكلير** و**كزافيير غوتييه**. ومنذ بضع سنوات أصبحنا نجد مؤلفات عديدة تثير قضايا من مثل كلام امرأة وكيف تعبر النساء. فالنساء لا يتداولن اللغة ولا يتذوقنها بنفس طريقة [الرجال]؛ إنهن يشعرن بالحرج ويتضايقن بسبب لغة طوعها الرجال حتى أصبحت حكرا عليهم. "إنني أحس باستمرار بفقر المعجم، إما لأن كلمات [كثيرة] تنقصني، وإما لأن الكلمات أصبحت حكرا على الرجال إلى درجة أنها تتمنع علي عندما أكون أنا، المرأة، التي أستعملها"، هكذا كتبت ماري كاردينال في (بتعبير آخر، ص.96)، ثم أضافت: "إن أفضل وسيلة للبرهنة على أن مفردات [كثيرة] تعوزنا، وأن اللغة الفرنسية لم توجد من أجل النساء، هي النزول إلى أسفل جسدنا والتعبير عن اللامعبر عنه واستعمال المعجم، كما هو، من غير تورية ولا تعديل. آنئذ سيتضح وسيضحي من البدهي أن هناك أشياء لا يمكننا ترجمتها إلى كلمات. فكيف نعبر عن الفَرْج والحمْل المعيش والزمن ومدة عادة النساء الشهرية؟" (نفسه).

ولا يكون للكلمات القيمة نفسها عندما تستعملها النساء، ذلك أنها تكون محملة بإيحاآت مختلفة. "خذ، مثلا، كلمة الحرية إذا كتبتها أو نطقت بها امرأة أو فاه بها رجل أو كتبها، فإنك ستجد

الهوة سحيقة بين الاستعماليين. ذلك أنه إذا كتبت امرأة غير مناضلة معروفة أو غير متخصصة في هذا النوع من القضايا، [كلمة] حرية وجب عليها توضيح مرادها من هذه الكلمة إذا كانت لا ترغب في أن يلتبس مفهوم الحرية بمفهوم الإباحية. وأما إذا كتب رجل الكلمة نفسها فإنه غير محتاج إلى التوضيح، فمعنى الكلمة الذي يتبادر إلى الذهن فورا هو معنى الحرية [لا غير]. إني "أريد أن أكون حرة" (2) التي تطلقها امرأة لا تحمل العظمة والروعة التي تحملها العبارة نفسها عندما ينطق بها رجل، وإذا أرادت أن يكون لها ذلك وجب عليها التوضيح. وكل المبادئ والأحكام المسبقة التي نعاني من وطأتها نجدها ثاوية في الكلمات التي نستعملها، كما أن هذه المبادئ والأحكام المسبقة، نفسها، تمنع عنا استعمال بعض الكلمات"،(مرجع سابق، ص.89).

والفكرة ذاتها نجدها عند **سيمون دو بوفوار** في قولها: "إني أعلم أن اللغة المتداولة مليئة بالأحابيل. فرغم ادعاء الكلية، نجد اللغة موسومة بميسم الرجال الذين تواضعوا عليها. إنها تعكس قيمهم ومزاعمهم وأحكامهم المسبقة"، (Ophir، 1976،ص.13).

وما يزال المجتمع يحصر المرأة في لغة-الأنثى. ولا يقبل من المرأة فظاظة التعبير التي لا نجد غضاضة في أن تكون عند الرجل. فما نجده رائعا عند **ميشيل تورنييه** (النيازك) أو **ميلر** أو **مايلر** يستمر في إثارة الصدمة إذا فاهت به المرأة أو كتبته. فالرجل وحده من له الحق في التلفظ بطز أو إست أو فرج (3). وقد عيب على **موريس سير**،مثلا، ممارسة لغة- الفحولة، [لغة] الذكورة غير المناسبة [للمرأة]. وتعقب **ماري كاردينال** بقولها(مرجع سابق، ص.84): "إذا رفضت الاعتذار واستعمال التورية، أو استعملت الكلمات، كل الكلمات، في معانيها الحقيقية، نبه النقد الجمهور إلى أنكِ لا تسلكين الطرق الملتوية ولا تتاورين وأنكِ عنيفة تمارسين العري. ويصبح الحديث عن إنجاز [رائع]، عن ظاهرة لا عن كتابة [عادية]". فعلى ما يبدو، ليست لغة الفحولة غير ملائمة فحسب، بل إنها محرمة علينا.

كما أن استعمال الخطاب العلمي والتقني نفسه مثار جدل. فبالنسبة لبعض النساء، قد يشكل هذا الخطاب قناعا يتخفين خلفه، وهو ما يضمن نوعا من المساواة.وأما لغة التنظير، اللغة العالمة المرتبطة بالسلطة فستعتبر [ممارستها] شكلا من أشكال العنف. والنساء اللائي يقبلن بهذه اللعبة يخدعن أنفسهن من غير قصد. وهذا ما أدى إلى تمجيد اللغة الفقيرة التي تقابلها لغة النخبة المعبرة عن السلطة، التي تعتبر ممارسة النساء إياها خيانة وطريقة معينة للانفصال عن المجموعة. "باللجوء إلى اللغة العالمة

تفقد النساء شيئا كونيا: لغةَ الحياة من أجل شيء خاص: لغةِ العلم" ("اللغة الفقيرة" حوار في دفاتر Grif، 13 أكتوبر1976).

وبالنسبة للأخريات، وأنا واحدة منهن، يبدو من الطبيعي إتقان السنن المناسب لمجال الاشتغال المختار. ويتجلى الإشكال في ولوج هذا المجال(ينظر مقال حديث صادر في [جريدة] Politique-Hebdo: "لماذا لا تصبح النساء عالمات رياضيات؟"). غير أن من المؤكد قدرة النساء على وسم أسلوب للخطاب مباشرٍ بله متحرر. وأستحضر، بالخصوص، مجال السياسة. فخطاب **فرانسواز جيرو** أو **أرليت لاغيلييه**، على وجه التحديد، يمتاز بشيء ما "مختلف". وأما خطاب الرجال فليس، في الغالب الأعم، إلا بلاغة جوفاء: إذ يتم [فيه] تقديم السنن باعتباره أداة سلطة، على الرسالة. وبالإمكان إنجاز دراسة عن الاستعارة عند الرجل والمرأة معا (فالاستعارة العسكرية،على سبيل المثال، شأن خاص بالرجال).

ففيم يتجلى [تعبير] النساء بطريقة أخرى؟ [تجيب] **فرانسواز كولان** بأن: "لغة الأنثى هي حرية الكلام على الإطلاق، ووفق كل الإمكانات المتاحة. إنها معانقة اللغة والغوص فيها والتمدد فوقها ومداعبتها وتقليبها وارتدائها دونما تفضيل عضو معين أو وجه واحد (4). والحديث عن النساء يعني المكوثَ دائما بقرب الجسد والحديثَ عن هذا الجسد المتعدد. وليست لغة الأنثى غمغمات، وإنما هي لغات [متعددة] (نستطيع فعل أشياء كثيرة بهذه اللهاة الصغيرة). ويعني عدم الابتعاد عن الجسد، أولا، معرفة أن اللغة المنطوقة أو المكتوبة ليست اللغة الوحيدة الممكنة، وأن الامتياز الذي تحظى به، خصوصا في ثقافتنا، هو في حد ذاته إقصاء. فهناك الإشارات والاتصال والحركة، وهناك الرسم والرقص والموسيقى والغناء والصوت.هذه الوسائل كلها تلغي لغة الذَكر آثارها لتنتصب[بمفردها].فهي تقصي الصوت والكلام. وتحاول الإيهام بأن الكلام أو الكتابة ليسا إلا إبلاغا للمعنى، لا اتصالا. إنها تقصي المادة وتوصي بالفكرة(التي ليست فكرا)" Polyglo(u)ssons, Grif, 12, p .7).

وأما **هيلين سيكسوس** فتتمسك بالتنصيص على الفرق بين الكتابتين النسائية والرجالية. "أغلب النساء الكاتبات لا يعتبرن، حتى زمننا هذا، أنهن يكتبن بصفتهن نساء، وإنما باعتبارهن كتابة. وقد ذهبن إلى حد القول إن الفرق الجنسي لا يعني أي شيء، وإنه لا وجود لفرق مميز بين المذكر والمؤنث في الكتابة...ما معنى هذا الكلام؟ "لا موقف محددا "؛ عندما يقول المرء إنه لا يمارس السياسة يدرك الجميع أن هذا يعني أنه الطريقة المثلى للقول إنه يمارس سياسة الآخر. وهو الأمر عينه في الكتابة؛

وأغلب النساء على هذا المنوال: إنهن يمارسن كتابة الآخر، كتابة الرجل،يعبرن عن هذا الأمر ويستمسكن به بطريقة السذج. إنهن يمارسن كتابة الذكور"(الجنس أو الرأس،ضمن دفاتر Grif 13).

وأما أنا فلا رأي لي في هذه المسألة، وخصوصا في مسألة الكتابة التي تثير إشكالات مختلفة عن التواصل الشفهي، ما دامت طريقة تعبير فردية. وأجد، شخصيا، الكتابة في حد ذاتها أمرا شائكا حتى أتساءل هل كتابتي تنتمي إلى كتابة "الرجل" أم "المرأة" ؟

وتطعن **سيمون دو بوفوار**، من جهتها، في الكتابة بصيغة المؤنث، التي تبدو لها نخبوية. وتذكّر بأن النفائس اصطدمت بهذا الأمر(ضمن Ophir 1976 ?). وهو الموقف نفسه الذي نجده عند **ماري كاردينال** [التي تقول]: "فما العمل إذن؟ طبعا سيكون محاولة تأنيث الكلمات، وأعلم أن الكثيرات يرغبن في الانخراط في هذا الاتجاه. وبفضل تأمل لا أجدني منخرطة في هذا التوجه، الذي قد يؤدي إلى إحداث استلاب جديد بخلق لغة جديدة خاصة. وسيصبح عندنا لغة النساء على غرار لغة المساجين ولغة الرياضيين ولغة القساوسة"(مرجع مذكور سلفا،ص.96). وهذا، في اعتقادي، هو الإشكال الحقيقي.

لماذا تعيش النساء اللغة ويحسسن بها ويمارسنها بطريقة مغايرة للرجال؟ أ لأنهن نساء؟ بالإحالة الضمنية على "طبيعة أنثوية" أُنتُهِيَ إلى المناداة بها والالتزام بها التزاما تاما؟ إن النساء يحسسن بطريقة مغايرة، وعليه فإنهن يعبرن بطريقة مغايرة، ولهن علاقة مختلفة بالكلمات والأفكار التي تحملها. ومن البدهي أن المطالبة ب[حق] الاختلاف والخصوصية في الوقت نفسه الذي يُطالب فيه بالمساواة في الحقوق هي الموقف السليم الذي يجب أن يُلتزم به. وهو ما تقوم حركات الأقليات المضطهدة. فالمسألة تتعلق بمناهضة التحقير والذوبان. مع العلم أن الاختلاف يجب أن يثار كقضية ثقافية. وإن الاعتماد على الخصوصية الأنثوية كان حجة من سوغوا دونيتنا منذ قرون عديدة. وقد كانت **بونوات غرولت** (1975) محقة حين ذكرت أن علاقة أدب المرأة بالأدب [عموما]، في مجتمعنا، هي نفس علاقة الموسيقى العسكرية بالموسيقى (5).

وعندما تصرح هذه أو تلك، بأن ما تكتبه لا يمكن للرجل أن يكتبه؛ يجب عليها أن تُقنِع بأن ما تكتبه مساو لما يكتبه الرجل، ذلك أن الرجل كان يعلن، دائما، بأن ما يكتبه لا تستطيع أي امرأة أن تأتي به. فالمجال الذي يتم فيه تقديم الطبيعة على الثقافة، ولو بطريقة غير إرادية، مجال محفوف بالمخاطر وكثير المترلقات. وصورة "الثقافة الأنثوية" ما تزال هشة. فمتى سيمكنها إثبات جدارتها؟ لعله من اللازم إرساء نماذج ثقافية مؤنثة(مبنية على "خصوصية" أنثوية، إذا جاز التعبير) تكون لها قيمة

كونية في عالم توافق فيه الكونية الذكورية. وبعبارة أخرى، [يجب] تنمية الهامشية إلى الحد الذي يحتل فيه الهامش نصف الصفحة. وهو مطلب ما يزال بعيد المنال.

الهوامش:

1-لغة الاحتقار هو عنوان الفصل الرابع من القسم الثاني من كتاب **مارينا ياغيللو** " الكلمات والنساء" الذي نترجم منه هذا المقال. وعنوانه: "صورة النساء في اللغة"، وفيه تثير الكاتبة مسألة عكس اللغة لصورة معينة للمجتمع ولميزان القوى الذي يحكمه.

2- تجدر الإشارة إلى أن هذه العبارة واحدة، سواء كان المتكلم ذكرا أو أنثى، لأن الصفة libre لا تحتمل إلحاق علامة التأنيث.

3-هذه الكلمات اليذيئة من المعجم المخل بالحياء الذي لا يجد المجتمع غضاضة في أن يمتح الرجل منه. وما نزال، إلى يومنا، نستغرب استعمال فتيات المدارس ألفاظا من هذا النوع. ولعل في ذلك تحولا في العادات والتقاليد، التي تشكل اللغة أحد مقوماتها.

4- هذه الصورة تحيل على ما رسخ في الأذهان من أن الرجل هو الذي يداعب المرأة ويستمتع بها، لاغير. وتم نقل الصورة نفسها في علاقة المرأة الكاتبة باللغة.

5-فما الفارق إذن؟